تطور علم الحديث
في شبه القارة الهندية

حافظ عبدالله *

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فان (الحديث) بالمعنى الاصطلاحي هو: ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ، أو صفةٍ خِلقِية أو خُلقيه، سواءٌ كان قَبْلَ البِعْثَة أمْ بعدها و«السنّة» تطلق على هذا المعنى فترادف «الحديث»[١]

وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المصدر الثاني للتشريع الإسلامي ويشكل عموداً للحضارة الإسلامية. قال الله تعالى في الكتاب الكريم: (يايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول)[٢]

وقال تعالى: (من يطع الرسُول فَقَدْ اطاع الله)[٣] وقال سبحانه: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكِّموك في ما شجر بينهم ثُمّ لا يَجِدُوا في انفسهم حرجاً ممّا قضيت ويسلّمُوا تسليما)[٤] وقال تعالى: (وما آتاكم الرسول فخُذُوه وما نهاكم عنه فانتهوا)[٥]

وروى الحاكم في «المستدرك» عن ابن عباس رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم خَطَب الناس في حجة الوداع فقال في خطبته: «ياأيها الناس إني قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلُّوا أبداً: كتاب الله وسنّة نبيّه»[٦]

وروى الحاكم أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني قَد تركتُ فيكم شيئين لَنْ تَضِلوا بعدهما: كتاب الله، وسنتي».[٧]

وروى الترمذي وابن ماجة والدارمي في سننهم: عن المقدام بن معدي كَرِب رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ألا هل عسى رجل يَبلغه الحديث عني وهو متّكىء على أريكته، فيقول: بيننا

---

* محاضر الدراسات الإسلامية بمركز الشيخ زايد الإسلامي جامعة بنجاب، لاهور

وبينكُمْ كتاب الله فما وجدنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدنا فيه حراماً حرّمناه وإنّ ما حرّم رسول الله كما حرّم الله». [٨]

وروى أبو داود أيضاً: عن المقدام بن معدي كرب رضي الله عنه عن رسول صلى الله عليه وسلّم أنه قال: «ألا إني أوتيتُ الكتاب ومثله معه ألا يوشك رَجلٌ شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا لا يحلُّ لكم الحمار الأهلي، ولا كلّ ذي ناب من السّبع ولا كل ذي مخلب من الطير ولا لقطة معاهِد إلاّ أن يَستغني عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يَقرُوه فإن لم يَقرُوه فله أن يُعقّبهم بمثل قِراه». [٩]

وروى أيضاً أبوداود والترمذي وابن ماجة في "سننهم" واللفظ لأبي داود: عن أبي رافع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا ألفِيَنّ أحدكم متكئاً على أريكته، يأتيه الأمرُ من أمري مما أمرت به أو نهيتُ عنه، فيقول لا نَدري، ما وجدنا في كتاب الله اتّبعناه». [١٠]

ولهذا قال الشيخ عبدالفتاح أبوغدّة حقاً في كتابه "لمحات من تاريخ السنّة وعلوم الحديث".

"فالسنّة والكتاب توأمان لا ينفكان، ولا يتمّ التشريع الا بهما جميعاً والسنّة مبيّنة للكتاب وشارحة له وموضحة لمعانيه ومفسّرة لمبهمه، فهي من الكتاب بمنزلة الشرح له، يُفصّل مقاصده ويتمّم أحكامه. [١١]

فإن السنّة أو الحديث يُعتبران الحجر الأساسي في إصلاح الفرد والمجتمع خلقا وعملا وفكراً، ويؤول الفضل إلى الحديث النبوي في الحفاظ على المجتمع الإسلامي متزناً محفوظاً من كل إفراط وتفريط، ولذلك تجد أن المجددين في كل عصر حاولوا اصلاح المجتمع الإسلامي عن طريق سنّة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلّم.

وكَتَبَ الشيخ السيد أبوالحسن علي الندوي في كتابه "تاريخ الدعوة والعزيمة".

"إن الحديث النبوي ميزان سليم به يزن المصلحون والمجددون عقائد الأمّة وأعمالها والتيّارات الفكرية فيها، وعن طريقه يعرفون

التغيرات الطارئة والانحرافات عن الجادة في سفر الأمّة الطويل على مدى التاريخ وانه لا يمكن الاعتدال والاقتصاد إلاّ إذا جمع بين القرآن والحديث. ولولا ذخيرة الحديث النبوي التي تضمن حياة معتدلة ولولا تعليم النبي صلّى الله عليه وسلّم.

وأحكامه التي طبّقت في المجتمع الإسلامي لكانت هذه الامة فريسة الإفراط والتفريط، ولما كان توازنها قائما، ولما وجد النموذج الذي أمرنا بالاقتداء به في قول الله تعالى: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (الأحزاب: ٣١) ودعا إلى اتباعه في قوله تعالى: (قُلْ ان كنتم تحبّون الله فاتّبعوني يُحْبِبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) (آل عمران٣١).

وإنه لأسوة حسنة والبشرية في حاجة ماسّة إليها وتستمدّ منها القوة والحياة وليطمئنّ أن الأحكام الإسلامية صالحة للتطبيق ميسورة، وقد طبقت في نموذج الحياة البشرية والحديث النبوي قوة للحياة والحركة وأنه ليحرّك للاصلاح والكفاح ضدّ الفساد والسوء.

وبتأثير الحديث النبوي نهض في الأقطار الإسلامية أناس رفعوا رأية الاصلاح والتجديد واندفعوا إلى معركة الاصلاح ضدّ بدعة الخرافات والتقاليد الجاهليه، وأقاموا دين الله الخالص وجاهدوا في الدعوة إليه. ولذلك كان ولا يزال الحديث النبوي حقيقة لابدّ للأمة الإسلامية، وهو شرط محتم لوجودها وبقائها. وما كان لهذه الأمة الإسلامية أن تدوم عملا ودينا وخلقا إلا بالحفاظ على الحديث وحفظه ونشره درساً وتدوينا وشرحاً وترتيباً».[١٢]

ولهذه الأهمية القصوى التي يحظى بها الحديث النبوي اهتمّ الصحابة والتابعون وأتباعهم بحفظه واتقانه ودراسته وإشاعته، وكانوا يتحمّلون في ذلك مشاقّ الأسفار الطويلة لا تجد مثلها في غير هذه الأمّة، حيث قام المسلمون بهذا الجهد الجبّار لحفظ تعليم نبيّهم.

أما شبه القارة الهندية فقد كان لها صلة تجارية مع العرب قبل الإسلام، ولكن بعد أن جاء الإسلام لم يكن العرب تجّاراً فقط، بل كانوا سفراء الإسلام إلى شبه القارة حيث عُرِف الإسلام عن طريقهم ولقد شقّ

المسلمون طريقهم إلى السند في عهد الصحابة ولكنهم فتحوها في اوائل عهد التابعين، حيث كان علم الحديث قد أخذ في التطور والازدهار، ولم تكن الحاجة شديدة ولا الظروف مواتية لتدوين السنّة في عهد الخلافة الراشدة فقد كان الاعتناء لحفظ الحديث بالغاً لآخر حده في هذا العهد وإنما مسّت الحاجة إلى التدوين في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز لأسباب ذكرها الباحثون في موضعها وكان عمر بن عبدالعزيز محدثا بارعا وعالماً فقيها، فوجّه إلى ولاته أمره بجمع الحديث وترغيب العلماء في ذلك، فَبَثَّ بذلك روحاً جديدا في علم الحديث حيث اندفع العلماء المحدّثون إلى جمع الحديث وترتيبه.

دخل علم الحديث في السند في هذا العصر المزدهر، إلاّ أنه لم يحظ بازدهار باهر إلى أواخر القرن الثالث الهجري إلى أن قامت حكومتا منصورة وملتان العربيتان ولم يستطع أهل السند أن يقوموا بالاسفار لتدوين الحديث في الأقطار الإسلامية الأخرى حينذاك، إلا أن بعض الطلاب الأذكياء من السند الذين كانوا قد اقتطنوا العراق، وأسارى الحرب الهنود الذين اسلموا وسكنوا البلاد الإسلامية، شاركوا في تدوين الحديث عمليا، منهم الاوزاعى في الشام، ونجيح السندي في المدينة المنورة وبغداد، ورجاء السندي في خراسان الذين اشتهروا في ترتيب الحديث وجمعه.

وقد رتّب أحد أولاد محمد السندي مستخرجا على الجامع الصحيح للإمام مسلم. وخلف السندي كان طالباً لعلم الحديث في القرن الثالث الهجري، رتّب مسندا ولكن لم يحفظ هذا المسند والمستخرج من عوادي الدهر، ولو حفظ لكان خير شاهد علي شاركة علماء الحديث الهنديين في تدوين الحديث إلاّ أن الأحاديث المروية عن طريق علماء السند في الصحاح الستّ وكتب الأحاديث الأخرى كثيرة لا تعدّ ولا تحصى. وحيث كان هؤلاء العلماء مشتغلين لعلم الحديث خارج الهند قامت مراكز علم الحديث في كنف منصورة وملتان وتخرّج فيها علماء أجلاء وتوجّه طلاب الحديث اليها وإنه لحقيقة لا تنكر أن محدّثي السند بذلوا جهداً

مشكوراً في خدمة الحديث وازدهاره في القرن الرابع الهجري.

وكتب مؤلّف "الثقافة الإسلامية في الهند".

"اعلم أن محمد بن القاسم الثقفي فتح بلاد السند في عهد الوليد بن عبدالملك الخليفه الأموي وتمكنت فيها دولة العرب كسائر البلدان ودخلها اتباع التابعين ورجال من أهل بيت النبي صلّى الله عليه وسلّم مخافة الخلفاء من الأمويين وبني العباس وتتابع الناس بعد ذلك من أهل العلم وسكنوا بها، وتوالدوا وتناسلوا، وسافروا من بلاد إلى بلاد أخرى، وأخذوا الحديث ورووها بالحفظ والاتقان مدّة أربعة قرون، وسارت بمصنّفاتهم الركبان إلى الآفاق، أشهر هم: اسرائيل بن موسى البصري نزيل الهند، ومنصور بن حاتم النحوى، وابراهيم بن محمد الديبلي، وأحمد بن عبدالله الديبلي، واحمد بن محمد المسعودى ابو العباس، وكان قاضي المنصورة. وله مصنفات على مذهب الإمام داود بن على الظاهري. وخلف بن محمد الديبلي، وشعيب بن محمد الديبلي، وأبو محمد عبدالله المنصوري، وعلي بن موسى الديبلي، وفتح بن عبدالله السندي، ومحمد بن ابراهيم الديبلي وخلق آخرون.[١٣]

ولكن مع الاسف أن الجهود العلمية لم تدم ولم تستمر إلى فترة طويلة حيث استولى الاسماعيلية على هاتين الحكومتين وقد أضرّ هذا التغيّر السياسي بعلم الحديث كثيراً فانتهى الدور الأول لنشر الحديث وتعليمه فجأة في الهند.

ولكي تكون على تصور اجمالي للمدّ والجزر اللّذين مرّ بهما علم الحديث في الهند بعد القرون الأربعة الأولى تقرأ معنا سطوراً من كتاب "الثقافة الاسلامية في الهند" للشيخ عبد الحي اللكهنوي.

"ولما انقرضت دولة العرب من بلاد السند، وتغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية، وتتابع الناس من خراسان وماوراء النهر صار الحديث فيها غريبا كالكبريت الأحمر وعديما كعنقاء المغرب، وغلب على الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية، وفي العلوم الدينية الفقه والأصول، ومضت

على ذلك قرون متطاولة حتى صارت صناعة أهل الهند حكمة اليونان والإضراب عن علوم السنّة والقرآن إلا ما يذكر من الفقه على القلة، وكان قصارى نظرهم في الحديث في مشارق الأنوار للصّغانى، فإن ترفع أحدٌ إلى مصابيح السنّة للبغوي، أو إلى مشكاة المصابيح ظنّ أنه وصل إلى درجة المحدثين وما ذلك إلا بجهلهم بالحديث، ولذلك تراهم لا يذكرون هذا العلم، ولا يقرؤونه ولا يحثون عليه ولا يجذبون إليه، ولا يعرفون كتبه ولا يعلمون أهله والقليل فهم كانوا يقرؤون المشكاة لا غير، وهذا على طريقة البركة لا للعمل به والفهم له. وعمدة بضاعتهم الفقه على طريقة التقليددون التحقيق إلاّ ماشاء الله تعالى في أفراد منهم، ولذلك كثرت فيهم الفتاوى والروايات وتركت النصوص المحكمات، ورفض عرض الفقه على الحديث وتطبيق المجتهدات بالسنن المأثورة عن النبي المعصوم المأمون صلّى الله عليه وسلّم.

حتى من الله تعالى على الهند بافاضة هذا العلم فورد به بعض العلماء في القرن العاشر، كالشيخ عبدالمعطى بن الحسن بن عبدالله باكثير المكى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٨٩هـ، والشهاب احمد بن بدرالدين المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ، والشيخ محمد بن احمد بن علي الفاكهي الحنبلى المتوفى بأحمد آباد سنة ٩٩٢هـ، والشيخ محمد بن محمد عبدالرحمان المالكي المصري المتوفى بأحمد آباد سنة ٩١٩هـ، والشيخ رفيع الدين الجشتي الشيرازي المتوفي بأكبر آباد سنة ٩٥٤هـ، والشيخ ابراهيم بن أحمد بن الحسن البغدادي، والشيخ ضياء الدين المدني المدفون بكاكوري، والشيخ بهلول البدخشي، والخواجه مير كلان الهروي المتوفى باكبر آباد سنة ٩٨١هـ وخلق آخرون.

ثم وفّق الله سبحانه بعض العلماء من أهل الهند أن رحلوا إلى الحرمين الشريفين، وأخذوا الحديث وجاءوا به في الهند، وانتفع بهم خلق كثير كالشيخ عبدالله بن سعد الله السندي والشيخ رحمة الله بن عبدالله بن ابراهيم السندي المهاجرين إلى الحجاز، فانها قدما الهند ودرسا بكجرات مدة طويلة ثم

رجعا إلى الحجاز، والشيخ يعقوب بن الحسن الكشميري المتوفي سنة ١٠٠٣هـ .. وغير ذلك.[١٤]

وقد ذكر الشيخ عبدالحي في كتابه كثيراً من العلماء الذين كانوا يخدمون الحديث وعلمه في القرن العاشر الهجري ولا نستطيع أن نذكرهم جميعاً هنا.

ومن الجدير بالذكر أن العصر الذي ذكره الشيخ عبدالحي وجد فيه بعض العلماء الصوفية الذين درسوا الحديث وتدارسوا في زواياهم نذكر من هؤلاء العلماء الصوفية الشيخ ذكريا الملتاني، والشيخ نظام الدين أولياء، والشيخ شرف الدين، والشيخ سيد علي الهمداني وبجهود هؤلاء العلماء الصوفية راج أن تدارسوا الصحاح الست في بعض زواياهم في شمال الهند في القرن الثامن الهجري.[١٥]

إن في القرن الحادي عشر والثاني عشر وجد علماء أجلاّء في الهند خدموا الحديث، انتهى أكثرهم إلى الشيخ أحمد السرهندي المعروف بمجدد الألف الثاني، والشيخ عبدالحق المحدّث الدهلوي. والشيخ مجدد الألف الثاني كان صوفياً زاهدا عالما، جاهد في اوائل القرن الحادي عشر ضد البدعة والخرافات وحاول أن يقدّم الإسلام للناس في صورته الأصلية أمّا الشيخ عبدالحق المحدّث الدهلوي فكان محدثا بارعا وفقيهاً ممتازا وقد خدم الحديث طول عمره ولا نجد له مثيلاً إلاّ الشيخ الشاه ولي الله الدهلوي وسيأتي ذكره قريباً. وإليك ما قاله الشيخ عبدالحي في "الثقافة الإسلامية في الهند".

"ثم جاء الله سبحانه بالشيخ عبدالحق بن سيف الدين البخاري الدهلوي المتوفّى سنة ١٠٥٢هـ، وهو أول من أفاضه على سكان الهند، وتصدّى للدرس والافادة بدار الملك دهلي، وقصّر همته على ذلك، وصنف وخرّج ونشر هذا العلم على ساق الجد فنفع الله به وبعلومه كثيراً من عباده المؤمنين حتى قيل أنه أول من جاء بالحديث بالهند وذلك غلط كما علمت،[١٦]

لقد وجد في هذه البلاد في القرنين الحادي عشر والثاني عشر من المحدّثين الحافظ عبدالصمد فخر الدين بن محبّ الله اكمل الشرح الفارسي لصحيح مسلم الذي

دهلي.

شاه محمد اسمعيل الشهيد في دهلي.

شاه محمد مخصوص الله في دهلي.

مفتي صدرالدين الدهلوي في دهلي.

حسن علي محدث اللكهنوي في لكهنو.

حسين احمد في مليلح آباد قريب من لكهنو.

شاه رفيع أحمد مجددي في بهوبال.

شاه فضل الرحمن كنج مُراد آبادي في مُراد آباد.

خرم علي بلهري في بلهر قريب من لكهنو.

شاه ابو سعيد في رامبور ودهلي.

محمد شكور جعفري في مجهلي شهر قريب من أعظم كره

شاه ظهور الحق قلندري في بلهواري شريف قريب من بتنة.

اولاد حسين في قنوج.

كرم محدث في دهلي.

سلامة الله بدايوني في كانبور.[١٩]

وتكفل بعد وفاة شاه عبدالعزيز أحد احفاده شاه اسحاق الدهلوي أن يقوم مقامه ودرس عشرين سنة ومن تلاميذه الشيخ مظهر النانوتوي بن الشيخ احمد السهارنفوري الذي بدأ تدريس الحديث في دارالعلوم ديوبند السهارنفور والشاه عبدالغني الذي كان أستاذاً لمؤسس دار العلوم ديوبند الشيخ محمد قاسم النانوتوي والشيخ نذير حسين العالم الشهير لأهل الحديث في الهند.[٢٠]

وبقيام دار العلوم ديوبند وسهارنفور دخل علم الحديث في دوره الجديد في الهند. وقبل أن نتكلم عن هاتين المدرستين للحديث، يجدر بنا أن نذكر الكتب التي صنّفت في علم الحديث في ادواره السابقة على سبيل الإجمال. وقد ذكر الشيخ عبدالحي اللكهنوي في كتابه "الثقافة الاسلامية في الهند" هذه الكتب المصنّفة بالتفصيل الا اننا نكتفي بذكر أهمّها.

أما مؤلفات أهل الهند في الحديث الشريف وأصوله وما يتعلق به فهي كثيرة، أشهرها «مشارق الأنوار» للشيخ الإمام حسن بن محمد بن الحيدر الصغاني اللاهوري و«مصباح الدجى في حديث المصطفى» للشيخ الصغاني ايضا وكنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للشيخ علاؤالدين علي بن حسام الدين المتقى

الهندي و«طريق الافادة شرح سفر السعادة» بالفارسية للشيخ المحدث عبدالحق الدهلوي، و«النوادر من أحاديث سيد الاوائل والأواخر» للشيخ ولي الله بن عبدالرحيم الدهلوي، و«المصفّى» شرح الموطأ بالعربية للشيخ يعقوب أبي يوسف البياني اللاهوري، و«المحلّى» شرح الموطأ بالعربية للشيخ سلام الله بن شيخ الإسلام البخاري اللاهوري، و«المسوى» شرح الموطأ للشيخ ولي الله الدهلوي، و«المصفى» شرح الموطأ بالفارسية للشيخ ولي الله الدهلوي.

ومن شروح البخاري شرح الشيخ الإمام حسن بن محمد بن الحيدر الصغاني اللاهوري، و«فيض الباري» شرح صحيح البخاري للسيد عبدالاول و«تيسير القاري» شرح عليه بالفارسي في ست مجلدات للمفتي نورالحق بن عبدالحق المحدث الدهلوي. ومن شروح صحيح مسلم «المعلم شرح صحيح مسلم» للشيخ يعقوب أبي يوسف اللاهوري و«المطر الثجاج شرح صحيح مسلم الحجاج» للمفتي ولي الله بن أحمد علي الحسيني الفرخ آبادي. ومن شروح جامع الترمذي شرح عليه بالعربية للشيخ طيب بن ابي طيب السندي المتوفى بضع وتسعين وتسعمائة من الهجرة. ومن شروح السنن لابي داؤد «غاية المقصود» شرح كبير عليه للشيخ شمس الحق الديانوي ولم يتم، و«عون المعبود» شرح عليه في اربع مجلدات للمولوي شمس الحق المذكور ومن شرح السنن المجتبى للنسائي «روض الدجى» شرح عليه بالأردية للمولوي وحيد الزمان اللكهنوي. و من شروح السنن لابن ماجة شرح عليه بالفارسية للشيخ سراج أحمد العمري السرهندي. ومن شروح مشكاة المصابيح «ذريعة النجاة شرح المشكاة» للشيخ عبدالنبي بن عبدالله الشطارى الكجراتي، و«لمعات التنقيح في شرح المشكاة بالعربية للشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي و«أشعة اللمعات شرح آخر بالفارسية للشيخ عبدالحق المحدث الدهلوي أيضا. وأما مصنفات اهل الهند في غريب الحديث فمنها: مجمع بحار الانوار للشيخ محمد بن طاهر بن علي الكجراتي وهو انفع الكتب وأحسنها وفي الموضوعات رسالتان للشيخ حسن بن محمد

بدأ به والده، سمّاه "منبع العلم في شرح صحيح مسلم" كما شرح نفسه صحيح مسلم وسمّاه "عنبرالعلم"، وشيخ الإسلام حافظ فخرالدين صاحب شرح صحيح البخاري والشيخ سلام الله بن الشيخ محدّث رام بوري صاحب "المحلى باسرار المؤطا" والشيخ سيف الدين نور الله صاحب "اشرف الوسائل في شرح الشمائل"، وبابا داود مشكاتي الذي حفظ مشكاة المصابيح، ومير سيد مبارك بلغرامي، ومير سيد غلام علي آزاد بلغرامي صاحب «دواء الداري شرح صحيح البخاري» ومحمد صديق بن شريف صاحب "نجوم المشكاة شرح مشكاة المصابيح وغير ذلك.[١٧]

ووجد في القرن الثاني عشر في الهند عالم محدث دخل معه علم الحديث في دوره الجديد واستفاد منه علماء كثيرون وبه اخضرّت روضة السنّة النبوية، هو الشاه ولي الله الدهلوي يقول مؤلف "الثقافة الإسلامية في الهند":

"ثم جاء الله سبحانه بالشيخ الأجل والمحدث الأكمل ناطق هذه الدورة وحكيمها وفائق تلك الطبقة وزعيمها، الشيخ ولي الله بن عبدالرحيم العمري الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦هـ، فانه رحل إلى الحجاز، وأخذ عن الشيخ ابي طاهر المذكور وعن غيره من أئمة الحديث، ورجع إلى الهند، وشمّر عن ساق الجد والاجتهاد لنشر ذلك العلم فدرس وأفاد وخرّجَ وصنّف، وقد نفع الله بعلومه كثيراً من عباده المؤمنين ونفى بسعيه المشكور عن فتن البدع ومحدثات الأمور لأنه بنى طريقته على عرض المجتهدات على الكتاب والسنّة وتطبيق الفقهيات بهما وقبول ما يوافقهما من ذلك، وردّ ما لا يوافقهما كائنا ما كان ومن كان"[١٨]

وقد أخذ بعد شاه ولي الله أولاده خدمة الحديث على أكتافهم، منهم الشيخ شاه عبدالقادر والشيخ شاه عبدالعزيز والشيخ شاه رفيع الدين رحمهم الله تعالى.

وجهود شاه عبدالعزيز في خدمة الحديث تستحق ذكرا خاصا وقد نهض تلامذته بإفادة مراكز لعلم الحديث في الهند، نذكرها فيما يلي:

شاه رفيع الدين الدهلوي أخوه الصغير في

بن الحيدر الصغاني اللاهوري. وفي أصول الحديث شرح على شرح نخبة الفكر للشيخ وجيه الدين العلوي الكجراتي وفي أسماء الرجال «المفتي» للشيخ محمد بن طاهر بن علي الفتني الكجراتي وفي الأسانيد رسالة للشيخ عبدالحق بن سيف الدين الدهلوي والارشاد في مسممات الاسناد للشيخ ولي الله الدهلوي.[٢١]

والذي ذكرناه هي بعض الكتب التي ألفت في الحديث وعلومه قبل تأسيس دار العلوم ديوبند ومظاهر العلوم بسهارنفور ولايتّسع المقام لاستيعاب ما الّف في الحديث وعلومه في تلك العصور من الكتب. ويبدأ طور جديد لعلم الحديث في الهند بعد تأسيس مظاهر العلوم بمدينة سهارنفور ودار العلوم بمدينة ديوبند. وكل واحدة من هاتين المدرستين نتيجة لجهود الشاه ولي الله الدهلوي، حيث تتلمذ عليه ابنه الشاه عبدالعزيز الذي تلمذ عليه الشاه اسحاق الدهلوي . وكان من تلاميزه الشاه عبدالغني والشيخ مظهر النانوتوي وقد أسّس الشيخ مظهر النانوتوي مدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور. كما أن تلميذ الشاه عبدالغني الشيخ محمد قاسم النانوتوي أسس دارالعلوم بديوبند.

ولقد عنيت كلتا المدرستين لعلم الحديث عناية خاصة في هذا العصر وقد اعترف علماء الأمة بهذه العناية والخدمة وقال الشيخ رشيد رضا:

"ولو لا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقضى عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد مضت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة حتى بلغت منتهى الضعف في أوائل هذا القرن الرابع عشر".[٢٢]

وقد ذكر الشيخ زاهد الكوثري في مقالاته:

"ثم يأتي دور إخواننا الهنود من أهل السنّة فمآثرهم في القرون الأخيرة فوق كل تقدير، وشروحهم في الأصول الستة تذخر بالتوسع في أحاديث الاحكام. فدونك فتح الملهم في شرح صحيح مسلم وبذل الجهود في شرح سنن أبي داود والعرف الشذي في شرح سنن الترمذي إلى غير ذلك ممّا لا

يحصى..."[٢٣]

ولذلك تجد كثيراً من الطلاب جاءوا إلى الهند من خارجها طلبا للحديث، وطلاب الهند وجدوا فيما يشفى غليلهم واستغنوا إلى حد كبير من السفر إلى خارج الهند وقد خرجت علماء أجلاّء منهم.

ومدرسة مظاهر العلوم بسهارنفور رغم أن تخرّج فيها الشيخ خليل أحمد السهارنفوري مؤلف بذل المجهود في شرح أبي داؤد والشيخ ذكريا مؤلف أوجز المسالك لم تكتب الشهرة التي اكتسبتها ديوبند بها مدرسة أخرى في الهند.

تخرّج في ديوبند محدثون وعلماء اجلاء من أمثال الشيخ محمود الحسن والشيخ اشرف علي التهانوي، والشيخ حسين احمد المدني والشيخ انور شاه الكاشميري والشيخ شبير احمد العثماني والشيخ شمس الحق والشيخ المفتي محمد شفيع والشيخ ظفر احمد العثماني والشيخ اشفاق الرحمن الكاندهلوي والشيخ عبدالحق والشيخ محمد ادريس الكاندهلوي وغير ذلك.

هؤلاء الذين يعز وجود أمثالهم في هذا العصر، وقد تبلورت جهود هؤلاء العلماء في الحديث في صورة فيض الباري وهي آمالى الشيخ انور شاه الكاشميري في شرح البخاري، وفتح الملهم في شرح صحيح مسلم، ومعارف السنن شرح الترمذي وتعليق الصبيح شرح مشكاة المصابيح وغير ذلك.

وهكذا ازدهر علم الحديث في الهند وبعد قيام باكستان قام علماء ديوبند بتأسيس مدارس في هذه البقعة من العالم فأسسوا المدارس لنشر العلوم الدينية في بلادهم واستفاد منهم آلاف من الطلبه من مختلف أنحاء باكستان.

الهوامش

(١) لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث للشيخ عبد الفتاح ابو غدّة (ص:٩) المكتبة العلمية- لاهور ط:١٩٨٤.

(٢) سورة النساء: ٥٩.

(٣) سورة النساء: ٨٠.

(٤) سورة النساء: ٦٥.

(٥) سورة الحشر: ٧.

(٦) المستدرك للإمام أبي عبدالله المعروف بالحاكم- كتاب العلم (١:٩٣) مكتبة النهضة الحديثة- الرياض.

(٧) المرجع السابق.

(٨) سنن الترمذي للإمام الحافظ محمد بن عيسى الترمذي - باب مانهى عنه أنه يقال عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤:١٤٥) دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية.

(٩) سنن أبي داؤد للإمام الحافظ أبي داؤد سليمان بن الأشعث (٤:٢٠٠) دار احياء التراث العربي- بيروت.

(١٠) المرجع السابق، والترمذي(٤:١٤٤).

(١١) لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث (ص١٠، ١١).

(١٢) تاريخ الدعوة والعزيمة لأبي الحسن علي الندوي (٥: ١٧٠-١٧٢) مجلس نشريات إسلامي- ط:١٤٠٤هـ.

(١٣) الثقافة الإسلامية في الهند للشيخ عبدالحي اللكهنوي (ص:١٣٥) دمشق- ط:١٣٧٧هـ.

(١٤) المرجع السابق (ص١٣٥، ١٣٦).

(١٥) علم حديث ميں پاك وهند كا حصه- د. محمد إسحاق (ص:١٢) اداره ثقافة إسلامية- لاهور- ط:١٩٧٧م.

(١٦) الثقافة الإسلامية في الهند (ص:١٣٧).

(١٧) علم حديث ميں پاك وهند كا حصه- (ص:١٧٨-١٩٢).

(١٨) الثقافة الإسلامية في الهند(ص:١٣٩).

(١٩) علم حديث ميں پاك وهند كا حصه- (ص:١٩٩).

(٢٠) المرجع السابق (ص:٢٠٠).

(٢١) الثقافة الإسلامية في الهند (ص:١٤٢-١٦٠).

(٢٢) مفتاح كنوز السنّة- مقدمة- سيد رشيد رضا مكتبة الإعلام الإسلامي- ط:١٤٠٤هـ.

(٢٣) مقالات الكوثري للعلامة زاهد الكوثري (ص:٧٤) مكتبة ايچ ايم سعيد- كراتشي.